اغلاط العرب

(تابع لما قبل)

وقال الفرزدق

فلئن سفكتِ دماً بغير جريرةٍ لتخلَّدِنَّ مع العذاب الأَليَمِ

هكذا رُوي هذا البيت في ديوانهِ وكانهُ اراد بالأليم صيغة التفضيل من قولك عذابٌ أَلِيم بكسر اللام فجآء بها على أَلْيَم وزان أَغيَد وأَهيَف وانما يجيء أليَم على هذا من مادة (ل ي م) ولا معنى لها هنا ولا ندري كيف يقع هذا من مثل الفرزدق . وقال الآخر انشدهُ ابن الأعرابيّ

ان مضى الحول ولم آتِكمُ بعَناجٍ تهتدي أَحوَى طِمِرْ

قولهُ بعَناجٍ اراد عناجيج وهي جياد الخيل واحدها عنجوج فحذف اليآء للضرورة كما قال الآخر في اعاصير اعاصر ثم حوّل الجيم الثانية ياءً كقول بعضهم في ارانب اراني ثم ابدل من اليآء تنويناً كما جوارٍ ونحوهِ . قال في لسان العرب وقولهُ تهتدي أَحوَى يجوز ان يريد « بأحوَى » فحذف واوصل اي حذف الحرف واوصل عمل الفعل الى الاسم ويجوز ان يريد « بعناجيج حوٍّ طِمِرّةٍ تهتدي » فوضع الواحد موضع الجمع . اه . وهذا الاخير اغرب ما ورد في هذا التخريج لانهُ بمنزلة قولك جآءني رجالٌ طويل وقد اصبح الشطر كلهُ ضرورات . قلنا ولو قال بجيادٍ تقتفي احوى طِمِرْ لاغنى عن ذلك كلهِ . واغرب منهُ قول الآخر رواهُ ابن الاعرابي عن المفضَّل

حتى تروحي أُصلاً تَزَايَهْ تَزَابيَ العانة فوق الزازَيهْ

وهو قول رجلٍ يخاطب ابلهُ وتزابيه اي تتزابيه مضارع تَزابَى عنهُ اي تكبر وترفع فعدّى الفعل بنفسهِ والضمير يرجع الى النبات المذكور قبل . والعانة جماعة الحُمُر الوحشية . وقولهُ فوق الزازيَه اراد فوق الزيزآءة او الزازية وزان عافية وهي المكان المرتفع فتصرف فيها بما رأيت . ومثل هذا اكثر ما يقع لهم في القوافي اذا لم تتوافق لهم من وضعها كقول الآخر

لقد خشيت ان ارى جدَبّا في عامنا من بعد ما أَخصبّا

اراد جدْباً واخصب فشدد البآءين وفتح الدال من قولهِ جدَبّا دفعاً لالتقاء الساكنين . ومنهم من يرويهِ جدْبيّا بزيادة بآءٍ مشددة بعد البآء الاصلية كما قال الآخر

جاريةٌ ليست من الوَخْشَنّ لا تلبس المِنطقَ بالمتَنَنّ

اراد الوخش والمتن فزاد عليهما نوناً مشددة . ومن ذلك قول الآخر

باتت علينا بالذنوب تعتلّْ جاريةٌ من رهط عبد الأَشهَلّْ

فثقل اللام من الاشهل لموافقة تعتلّ . وعكسهُ قول الآخر

حين القت بقُبآءٍ ركبها واستحرَّ القتلُ في عبد الأَشَلْ

يريد عبد الاشهل ايضاً فحذف الهآء للضرورة . ويتصل بهذا قولهم في المثل ابن عشرين باغي نِسِين يريدون باغي نسآء فجمعوا نسوة على نِسين على حدّ سنة وسِنين وانما يجمع هذا الجمع ما حُذفت لامهُ كسنَة وقُلَة او فاؤهُ كلِدَة وهذا نادر ولم يسمَع فيما ثبتت لامهُ الاّ في هذه الكلمة ولعلها لم تُسمَع كذلك الا في هذا المثل لوقوعها فيهِ في موضع الفاصلة[1] .

(١) قال في لسان العرب في مادة (ع ف ر) يقولون ابن عشر لعابٌ بالقُلين

على ان الامثال كثيراً ما يقع فيها مثل ذلك (٢) وهي عندنا اصدق حكايةً للُّغة من الشعر لانها لعموم تداولها ابعد عن التحريف والتبديل ولعل الكثير منها اقدم عهداً من الشعر الذي وصل الينا من كلامهم . وقال شقيق ابن سُلَيك الاسديّ

وخافت من جبال السُغد نفسي وخافت من جبال خُوارَرَزْمِ

اراد خُوارَزْم فزاد عليها راءً اخرى فجاءت اشبه بلغة « صوتُ صفير البلبلِ »
ومثلهُ قول الآخر .

وابن عشرين باغي نسين وابن الثلاثين اسعى الساعين وابن الاربعين ابطش الابطشين وابن الخمسين ليث عفرّين وابن الستين مؤنس الجليسين وابن السبعين احكم الحاكمين وابن الثمانين اسرع الحاسبين وابن التسعين واحد الارذلين وابن المئة لا جا ولا سا ٠ قال في لسان العرب يقول لا رجل ولا امرأة ولاجن ولا انس (كذا) ولعل الاصل لاجيم ولا سين يريدون لاجني ولا انسي اي لا شيء * وقد ضُبط لفظ نسين في هذا الموضع من لسان العرب المطبوع في بولاق بتشديد السين نقلاً عن الاصل كما نبه عليه المصحح وجاء فيهِ في ترجمة (ن س و) النسوة ٠٠ والنساء والنسوان والنسون (وضبط بكسر النون وضم السين) جمع المرأة من غير لفظهِ . و بالهامش قولهُ والنسون كذا ضبط في الاصل والمحكم ايضاً وضبط في النسخة التي بايدينا من القاموس بكسر فسكون ففتح كتبهُ مصححهُ . اه . قلنا الصواب ما ضبط بهِ في لسان العرب في هذا الموضع اي بكسر النون وضم السين مخففةً وما جاء من تشديد السين في الموضع الاول غلط واضح ومثلهُ ما جاء في القاموس من ضبطهِ على وزن درهم فانهُ وهمٌ من الناسخ او المصحح وكانهُ لما ذكر هناك على عقب النسوان سبق الى ظنه انهُ مقصورٌ منه وليس بشيء لان هذا المثال لم يعهد في شيء من الجموع انما هو ما ذكرناهُ وهو منقولٌ عن هذا المثل

(٢) جاء في الصحاح في مادة (ج ن ي) وفي المثل أجناؤها ابناؤها اي الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين كانوا بنوها حكاهُ ابو عبيد . قال وانا اظن ان اصل المثل جناتها بناتها (اي بضم الجيم والباء) لان فاعلاً لا يجمع على افعال .

بات يقاسي ليلهنَّ زمّامْ والفقعسيُّ حاتم بن تمّامْ
مسترعفات لِصِلِّخْم سامْ

اراد لصِلَّخْم فزاد لاماً قبل اللام المشددة . والصلَّخْم البعير الجسيم الشديد ومسترعفات اي سابقات . ومن هذه المادة روى في لسان العرب لأبي نُخيلة لبلخ مخشيّ الشذا مصلخمِ قال فضاعف الميم كما ترى وعبارة تاج العروس فزاد ميماً كما ترى والصواب انهُ فك الادغام ولا زيادة هناك لانهُ اراد مصلخِمّ بالتشديد اسم فاعل من اصلخمَّ . ومثلهُ قول رؤبة اذا اصلخمَّ لم يُرَمْ مصلَخْمَمُهْ يريد مصلخَمُّهُ بفتح الخاء وهو مصدر ميمي منهُ ففكّ ادغامهُ ايضاً للضرورة

وقد اطلنا في الكلام على هذه المفردات الى ما لعلهُ ادّى الى ملل المطالع فنقف منها عند هذا القدر اذ ليس من غرضنا هنا الاحاطة بكل ما جاء لهم من هذا القبيل وانما اوردنا ما اوردناهُ اثباتاً لما قدمنا من ان ليس

الا ان يكون هذا من النوادر لانهُ يجيء في الامثال ما لا يجيء في غيرها اه . قلنا وبقي هنا قولهم اجناؤها او جناتها كما اختارهُ صاحب الصحاح بالاضافة فيهما وكلاهما خطأ لان معنى اجناؤها الجانون عليها فحذفت على واضيف الوصف الى الضمير والاضافة لاتكون بمعنى على . على ان هذا من ايسر ما جاء من الشذوذ في الامثال ومن تتبع امثالهم وجد فيها كثيراً من اللفظ الذي لا يمكن ردهُ الى اصل او لا يستقيم تأويله على وجه صحيح كقولهم جئ بهِ من حسّك و بسّك يريدون من جهدك وطاقتك وجاء بالهيء والجيء وفسروهما بالطعام والشراب ويقال لو كان ذلك في الهيء والجيء ما نفعهُ والله اعلم ما مرادهم بهِ وقولهم اخبرهُ بأمرهِ بلاً بلاًّ وهذا مثل قول بعض عامتنا قص عليهِ الخبر بيلا بيلا وقولهم جدَيدة في لعيبة (بلفظ التصغير فيهما) قالوا اي جدٌّ في لعب ووجههُ بعيد كما لا يخفى وقس على ذلك ما لا يحصى مما لا نطيل بسردهِ والكلام عليه

كل ما نطق بهِ البدويّ يُعدّ صواباً ولا كلهُ يجوز لنا متابعتهُ فيهِ والا لأجازهُ البدويّ لنفسهِ في غير ضرورة الشعر بل لكان شائع الاستعمال بينهم ولو في الضرورة . ولكنك اذا تتبعت الالفاظ التي اخذناها عليهم في هذا الموضع لم تكد تجد شيئاً منها في غير الامثلة التي اوردناها وذلك يدلك على ان ليس كل ما استُعمل في الضرورة مقبولاً عند جمهورهم وانما المقبول منهُ ما كان من نحو قصر الممدود وصرف الممتنع واثبات آخر الناقص في الجزم وشبههِ وما شاكل ذلك مما لا يشكل ردّهُ الى اصلهِ ولا يؤدّي الى تنكرُّ الصيغ والتباس المعاني . على أنّا نقول ان كل ما ذُكر هنا من الاغلاط انما يُعَدّ غلطاً بالقياس الى اصل الوضع والى ما جرت عليهِ العرب في مخاطباتها كما سبقت الاشارة اليهِ لا على معنى ان البدويّ كان يستعملهُ كذلك وهو يعدّهُ صواباً والاّ لكانت هذه المذكورات شائعةً في سائر كلامهِ نخرجت عن كونها غلطاً الى كونها اصلاً يُرجع اليهِ ويُحتَجّ بهِ كسائر الشواذّ المتداوَلة في كلامهم وهو ما يريدهُ بعض المتعصبين لهم عن جهلٍ ومجازفة . وانما الذي يشفع في تلك الاغلاط ما هو معلومٌ من حال الضرورة عندهم اذ كان الشاعر منهم اكثر ما يقول الشعر اقتضاباً عن غير رويّةٍ فلم تكن لهُ سعةٌ من تخيُّر الالفاظ والترسل في التراكيب فربما تسامح في بعض منطقهِ محافظةً على الوزن او القافية ولهذا لم يكن للمولد ان يقتدي بالبدوي في مثل هذه الضرورات ولا تقوم حجةً لهُ في النظم فضلاً عن النثر

(ستأتي البقية)

الاختمار

لحضرة الكاتب البارع نقولا افندي الحداد

(تتمة ما سبق)

اختمار اللبن — اما اللبن فيشتمل لبن البقرة منهُ على ٤ ونصف في المئة من مادّة آحية (زلالية) وهي المادّة المغذية فيهِ وعلى نحو ٤ وربع في المئة من مادة سكرية تختلف عن سكر العنب في تركيبها الكيماوي وهي في لبن النسآء اكثر حتى ان حلاوتهُ ظاهرة وعلى اكثر من ٣ ونصف في المئة من مادة دهنية وقليل من الاملاح المعدنية والباقي مآءٌ يتبخر بعضهُ بالغليان

وتلك المادة الآحيّة التي في اللبن لا تجمد بالغليان كما يجمد آح البيض لانها تختلف عنهُ بعض الاختلاف وانما تجمد بفعل اكثر الحوامض ولذلك اذا أضفتَ حامض الليمون مثلاً الى اللبن الحليب خثر في الحال اي جمدت المادة الآحيّة التي فيهِ واتحدت معها المواد الدهنية غالباً

واللبن الرائب انما يخثر بما يضاف اليهِ من الروبة وهي الكمية القليلة من اللبن الحامض التي تمزج باللبن الحليب فانها تحتوي على عددٍ عديد من الجراثيم الاختمارية المخصوصة بهِ وهي تعيش على المادة السكرية التي في الحليب فتؤكسدهُ اي تضم اليهِ اكسيجيناً وتحوّلهُ الى حامض يقال لهُ الحامض اللبنيك على حد ما تحلّ جراثيم خمر العنب سكر العنب الى كحل ثم خل. فهذا الحامض اللبنيك يجمّد المادة الآحيّة التي في الحليب وتكون المادة الدهنية ايضاً معها وبقية المآء منتشرة في خلايا اللبن الدقيقة

والجراثيم المذكورة تظهر تحت المجهر (المكرسكوب) على شكل قضبان

قصيرة غير متحركة يتحد زوج او زوجان منها معاً كسلسلة و بزيراتها في اطرافها واضحة وتعيش في حرارة بين ١٠ الى ٣٥ درجة من السنتغراد

واذا لم يروَّب الحليب اي لم يضف اليهِ مقدار قليل من اللبن الخاثر كالعادة جآءتهُ بزيرات الجراثيم من الهوآء عرضاً وافرخت فيهِ ونمت وبعد بضعة ايام يختر من تلقآء نفسهِ لكن حموضتهُ تكون اشد لان كل المادة السكرية التي فيهِ تتحول الى حامض لبنيك يزيد على القدر اللازم لتجميد المادة الآحية فيهِ . والصرْب اي اللبن الحامض الذي يقال لهُ في بعض جهات سوريا « لبن أمبَرِيْس » يُصنع على هذا النحو اي بايداع الحليب في احواض وتركه بضعة ايام فيختمر لنفسهِ ويختر ومنهُ تؤخذ الروبة الاولى واللبن الرائب العادي اذا بقي مدةً زادت حموضتهُ كذلك اذ يتحول كل سكرهِ الى حامض لبنيك

ثم ان الاختمار في اي حالة كانت يمتنع باضافة شيءٍ من القلويات او نحوها لان هذه القلويات تسبق المادة الآحيَّة الى امتصاص الحامض اللبنيك الذي تصنعهُ الجراثيم فيبقى الآح سائلاً على حالهِ . وكذلك يمكن منع الاختمار باضافة مواد قتالة للجراثيم كالحامض السليسيليك او البوريك وهما لا يجمّدان الآح والـكليسرين وزيت الخردل ولكن لا يبقى الحليب بعد ذلك صالحاً للمائدة . على ان تبريدهُ الى درجة الجليد أفضل لحفظهِ من الاختمار لان الجراثيم لا تعيش في بردٍ كهذا

اما الإنفحة اي « المسوة » التي تجمّد الحليب فيظن انها تحتوي على جراثيم مخمِّرة او مواد مجمّدة كالخمير الذي يوجد في المعدة ويحل مواد الطعام

اختمار العجين — وبقي الكلام في اختمار العجين وهو يشبه اختمار العنب كل الشبه . فان الخميرة التي تضاف الى العجين في اثنآء عجنهِ تحتوي على جراثيم مخمّرة تظهر تحت المجهر مستديرة او بيضية الشكل وهي تعيش في حرارة ٣٠ درجة من السنتغراد على المادة النشائية التي في الدقيق فتحولها الى مادة سكرية ثم تحول بعض المادة السكرية الى كحل وغاز الحامض الكربونيك . واذا زادت مدة الاختمار حوّلت قسماً من السكر الى الحامض اللبنيك والحامض البوتيريك حتى يظهر اخيراً طعم الحموضة في العجين والخبز ايضاً . وهذان الحامضان يذوّبان مادة آحية هي المعروفة بصمغ العجين وهي التي تلوّن الخبز بلونهِ المعروف . واذا كان الخمير قديماً كان افعل في تحويل السكر الى الحامضين المذكورين وعند ذلك يجيء لون الخبز كمداً فلون الخبز اذاً يتوقف على عمر الخمير فاذا كان الخمير جديداً كان الخبز انقى واصفى لوناً

واذا تُرك العجين بلا خمير مدةً يختمر لنفسهِ اذ تطرأ عليهِ من الهوآء الجراثيم اللازمة لاختمارهِ ولكن يكثر فيهِ الحامضان اللبنيك والبوتيريك لعدم انتشار تلك الجراثيم فيهِ دفعة واحدة كما تنتشر من الخميرة في اثنآء العجن ولذلك يختمر بعض العجين قبل بعضهِ فيحمض السابق قبل اختمار اللاحق ولكن هذا العجين يصلح ان يكون خميراً

والغرض من تخمير العجين ان يتولد فيهِ غاز الحامض الكربونيك كما تقدم بيانهُ لان هذا الغاز ينتشر في خلايا عديدة دقيقة في العجين وفي اثنآء الخَبْز يتمدد هذا الغاز بفعل الحرارة كسائر الغازات فتتسع تلك الخلايا

ويظهر اكثرها للعيان فالتي على سطح الرغيف تنفتح ويفلت الغاز منها ولكن تظهر آثارها تحت المجهر واضحةً والتي في احشاء الرغيف تنتفخ ولهذا يرى لُباب الرغيف اسفنجيًا لينًا سهل المضغ والهضم . وبخلاف ذلك الخبز الفطير فليست لهُ تلك البنية الاسفنجية ولكن تكون كل اجزآئهِ متضامةّ وكِسَرهُ صلبة بعض الصلابة بحيث يصعب مضغها ومزجها بالعصارات الهاضمة

وبما ان فائدة التخمير تتوقف على وجود غاز الحامض الكربونيك في خلايا العجين فقد رأى البعض ان يحقنوا العجين بهذا الغاز او ان يضيفوا اليهِ بيكربونات الصودا واحد الحوامض فيتفاعلان تفاعلاً كيماويًا ثم يتولد غاز الحامض الكربونيك المطلوب

والخبز المرقوق الذي يصنع في بعض جهات سوريا لا يحتاج الى اختمار لانهُ رقيق جدًّا لا تبقى فيهِ الخلايا مختومة على الغاز الاّ نادراً ولهذا تراهم يخبزون هذا الخبز قبل ان يختمر العجين واذا عجنوا العجين بلا خمير لا يفرق خبزهُ عن خبز المختمر فرقًا يُعبأُ بهِ كما يفرق في خبز « الكماج »

وربَّ سائلٍ يقول اذا كان العجين يختمر لنفسهِ من الجراثيم السابحة في الهوآء فلماذا لا يختمر كل العجين الذي يعلقهُ بعض الناس في الشجر في ليلة القدر عند النصارى اي في ليلة عيد الغطاس لكي يعرفوا منهُ بختهم . فاقول ان تلك الجراثيم لا تعيش في ذلك البرد القارس ولهذا يستحيل ان يختمر العجين اما الذين يزعمون ان عجينهم قد اختمر فهم الذين ينتشلون ماء البئر بالسلة ويحملون زيت المعصرة بالمنخل والغربال والسلام

دلائل الماء

لا يخفى ان الماء من العناصر التي لا يتمّ بدونها عمران ولا يستغني عنها نبات ولا حيوان ولذلك كان الناس من اقدم زمن يتخيرون النزول في جوار الانهار والمناهل يضربون بجانبها خيامهم او يبنون حولها مدنهم وقراهم وكل موضع لا ماء بهِ احتالوا بجرّ الماء اليهِ من الاماكن القريبة او استنبطوهُ من جوف الارض اذا آنسوا وجودهُ بظهور شيء من علاماتهِ وربما اقتصروا على حفر الآبار يستقونهُ منها على ما في ذلك من المشقة والكلفة

اما الاستدلال على وجود الماء فكانوا يتخذون لهُ بعض العلامات الظاهرة على وجه الارض مما يُشعِر بقرب الرطوبة من سطحها وقد توسعوا في البحث عن هذه العلامات وتمييز صادقها من كاذبها حتى صيروها علماً قائماً بنفسهِ سمتهُ العرب بعلم الريافة وهي كلمة مولدة اشتقوها من الريف وهو ما كان من الارض فيه خضرةٌ ومياه . وقد ذكر هذا العلم صاحب كشف الظنون وقال في تعريفهِ هو استنباط الماء من الارض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجودهِ فيُعرَف بعدهُ وقربهُ بشمّ التراب او بالنباتات فيهِ او بحركة حيوان وُجد فيهِ فلا بدَّ لصاحبهِ من حسٍّ كامل وتخيُّلٍ شامل وهو من فروع الفراسة من جهة معرفة وجود الماء والهندسة من جهة الحفر واخراجهِ . انتهى كلامهُ . الّا انهُ لم يذكر واضعهُ ولا زمن وضعهِ ولا احداً ممن ألَّف فيه . والذي يتبين من نصوص اللغة ان العرب الاولين لم يكونوا بمعزلٍ عن هذا العلم وكانوا يسمون صاحبهُ القِنقِن بالكسر

والقُناقِن بالضمّ قال ابن الاعرابي هو البصير بحفر المياه واستخراجها وقال غيرهُ هو البصير بالمآء في حفر القُنيّ والظاهر ان هذا التفسير الثاني مبنيٌّ على اشتقاق اللفظة . وقال ابن برّي القِنقِن والقُناقِن المهندس الذي يعرف المآء تحت الارض وهو معرَّب من قولهم بالفارسية كِنْ كِنْ اي احفر احفر ونقل صاحب اللسان في مادة (ح ز ي) استعمال العرّاف بهذا المعنى وفسرهُ بالذي يشمّ الارض فيعرف مواقع المياه

وقد بحث علماء اوربا في هذا العلم واستقروا دلائلهُ وكتبوا فيهِ والظاهر انهُ كان معروفاً عندهم من عهدٍ قديم الا ان المتقدمين من اصحابهِ كانوا يموهونهُ بضربٍ من الشعوَذة فيدعون انهم يعرفون وجود المآء في باطن الارض بواسطة ما يسمونهُ بمِخصرة الحَزْر وهي قضيبٌ يقطعونهُ من شجرةٍ من البندق او التفاح او غيرهما يحملها اصحاب الريافة وحازرو البخت ونباشو الكنوز فاذا دنوا بها من موضع المآء او الكنز دارت في ايديهم فاستدلوا بها على مكانهِ حتى اذا بلغوا ان يصير المآء او الكنز تحت اقدامهم انتصبت واقفةً فيحتفرون هناك فلا يخطئونهُ . وينبغي ان يكون القضيب الذي تؤخذ منهُ فرخ سنتهِ ويُقطع قبل نصف الليل ثم يُتلى عليهِ شيءٌ من الاقاويل الروحانية والرُقى السحرية الى ما اشبه ذلك من الخزعبلات . قيل واستخدام هذه المِخصَرة في الاعمال السحرية قديمٌ جدًّا ومنها العصيّ التي كانت تستعملها سَحَرة فرعون وما يُروَى من مثلها عن سَحَرة اليونان وقد انتقلت من امةٍ الى اخرى في خلال العصور المتقدمة حتى افضت الى عرّافي اوربا الاّ انهم لم يتجاوزوا بها مثل ما ذُكر من كشف الخفايا ومعرفة

اصحاب الجرائم ولها عندهم احاديث عجيبة لا تزال تتناقل الى هذا اليوم . وقد اهتمت ندوة العلوم الفرنسوية بهذه المسئلة وعينت لفحصها لجنةً مخصوصة سنة ١٨٥٣ فاعلنت بطلانها وقرّرت ان ما ذكر من حركة هذه المخصرة لم يكن الا حركة عضلية واذا اتفق ان يصيب الرجل في معرفة شيء من المغيبات فان ذلك لا يتعدى الاتفاق

وعليهِ فالريافيون او القناقن الذين لا يزال اناسٌ منهم الى اليوم يدلون على مواضع المياه انما يعرفونها بالادلة الخارجية لا بايحآء المخصرة وانما يستخدمون المخصرة بقصد المخرقة والتمويه على الجهال وذوي العقول السخيفة لترويج بضاعتهم

اما تلك العلامات فهي على ما استقراهُ بعض علمآئهم كهمبولد وبرونيار وبومون واُوشر وغيرهم ترجع الى اربعة امور ننقلها في هذا الموضع افادةً للقرآء . اولها صوت حركة المآء في باطن الارض وذلك بان يُثقَب في الموضع الذي هو مظنةٌ لوجود المآء وتوضع الاذن على الثقب او يؤخذ قمعٌ من الورق وتوضع فوّهتهُ الواسعة على الثقب ويُدخَل طرفهُ الدقيق في الاذن فان كان هناك حركة مجرًى قريب سُمع صوت هدير غائرٍ . وينبغي ان يكون هذا التسمّع صباحاً او مسآءً حين تكون الحركاتُ هادئة . على ان هذا الصوت انما يُسمَع اذا كان ثمة مآءٌ جارٍ واما اذا كان المآء راكداً فلا يُسمَع شيءٌ بالضرورة ولذلك فا كثر ما يُستدَلّ بهذه الطريقة في الاراضي الجبلية لان المآء هناك يكون على الغالب متحدراً

والثاني ذوبان الثلج في الاماكن التي يسقط فيها فان الموضع الذي

يكون تحتهُ ماءٌ يكون انحلال الثلج فيهِ سريعاً لان ذلك الموضع لمجاورتهِ للمآء واحتجاب المآء فيهِ عن الهوآء المحيط يكون في درجةٍ من الحرارة كدرجة المآء نفسهِ وبالتالي تكون درجة حرارتهِ اعلى من درجة حرارة الهوآء فيذوب الثلج الساقط عليهِ قبل ان يذوب في غيرهِ ولذلك لا يكاد الثلج يتراكم في مثل هذه الاماكن لانهُ لا يلبث بعد سقوطهِ حتى ينحلّ ويصير ماءً

والثالث ظهور ابخرةٍ تنبعث من الارض وتجمُّع البعوض ونحوهِ من الهوامّ الطيّارة وذلك ان رطوبة الارض الباطنة اذا استصحبت من درجة الحرارة ما يذيب الثلج في اوان البرد فان تلك الحرارة يُستدلّ عليها في بقية الفصول بانتشار ابخرة ضعيفة تُرَى صباحاً قبل طلوع الشمس او مسآءً بعد مغيبها . ثم ان هذه المواضع تكون ولا بد في ايام الحرّ ابرد مما يجاورها فيقصدها البعوض وغيرهُ مما يطير بالقرب من وجه الارض هرباً من حرارة القيظ . على ان كلا الامرين يحدث ايضاً في المستنقعات ومواضع النزّ والغَمَق فينبغي ان تُفحص حالة الارض بحيث يُعلم ان ليس فيها شيءٌ من ذلك والا فليس ما ذكر بدليل

والرابع وجود انواعٍ خاصةٍ من النبات وهي انبتةٌ معروفة لا تعيش الا في الاماكن الدائمة الرطوبة من مثل الحلفآء والصفصاف والقُرّة والنعناع والشقيق . لكن ينبغي ان يتحقق ان وجود الرطوبة هناك غير مسبب عن عدم ارتشاح المياه السطحية بان يوجد تحت الطبقة الظاهرة من الارض طبقة دلغانية او صلصالية تمسك ما فوقها من الرطوبة المآئية لان هذه

الانبتة تكفيها الرطوبة القليلة ولذلك فقد توجد في الصحارى البعيدة عن مظانّ المآء اذا كانت تربتها من مثل ذلك

وهناك دلائل أخر من نوع التربة وشكل الارض . فاما نوع التربة فلا بد لتجمع المآء في جوف الارض من ان يفضي الى طبقةٍ متماسكة كالصلصال ونحوه من الترَب التي لا ينفذها المآء فيستقر فوقها ويقاس بعدهُ عن سطح الارض ببعد تلك الطبقة . واما شكل الارض فمن المعلوم ان المياه المستبطنة لها منساقةٌ اليها من ظاهرها فينبغي ان يُنظَر الى اقرب المواضع ظنّاً ان تكون المياه السطحية قد انصرفت اليهِ فان كانت تلك الارض سهلاً نُظر الى اسفل المواضع المطمئنة فيهِ لان مياه الامطار والسيول لابد ان تنتهي اليهِ وتغوص فيهِ وان كانت جبلاً او في جوار جبلٍ نُظر الى الاخاديد التي تحفرها السيول في سنَد الجبل اي في جانبهِ فحيثما التقى اخدودان او اكثر عند حضيض الجبل او في قرار وادٍ كان هناك مظنة اجتماع المياه الشتوية وكلما كان موضع ملتقى الاخدودين ابعد عن منشأهما كانت المياه هناك اغزر وقد قدروا انهُ لا يوجد مجتمع مآء غزير على بعد اقل من ٥٠٠ متر. على ان الجبال لا تخلو ان يكون احد جانبيها منبطحاً والآخر قائماً والمياه قلما توجد الا فيما يلي الجانب المنبطح

هذا جلّ ما وقفنا عليهِ في هذا الصدد ولهم في كل ما ذكر تفاصيل شتى امسكنا عن استيفآئها في هذه العجالة حب الاختصار

الوثّاب

بقلم حضرة النطاسي البارع الدكتور حبيب افندي همام

الوثّاب لفظٌ مولد يراد بهِ حالٌ مرضيَّة معروفة عند اكثر الشرقيين . وهو مع كثرة انتشاره في الاقطار السوريَّة قل من بحث فيهِ بحثاً علمياً وندر من افرد لهُ كلاماً خاصاً في الكتب الطبيَّة لاعتقاد انهُ عرضٌ مَعَديّ محض مسبب عن عسر الهضم فقط . بيد انهُ وان كان عسر الهضم سبباً مُهِمًّا من أسبابهِ وقد يكون عرضاً من اعراضهِ فقد يحدث والمعدة على احسن حال من الانتظام بل قد تكون خاوية خالية واعراضها لاحقة لا سابقة

ولما كنت ممن ينتابهم هذا العرض لاقل الاسباب تحرّيت البحث فيهِ فكاشفت بامرهِ من اجتمعت بهِ من نطس الاطباء وكبار العلماء وطالعت ما وصلت اليهِ يدي من الكتب الطبيَّة والمجلات العلميَّة حتى عثرت على شيءٍ من حقيقة حالهِ فاضفتهُ الى ما اختبرتهُ بنفسي وتحققتهُ بحسّي ورأيت ان اعرضهُ على جمهور القرآء آملاً ان يكون منهُ بعض الفائدة . وقد سقت الكلام فيهِ مساقاً اجمالياً بسيطاً متحاشياً ذكر الاصطلاحات الطبية ما امكن مراعياً فيهِ الذوق العام تاركاً البحث الطبي البحت لكبار الاطبآء راجياً ان يتحفونا بما فيهِ لنا الفائدة ولهم الفضل

وقبل الكلام في هذا الموضوع لا بد لي ان اعترف بعجزي عن تحديدهِ فقد حاولت ذلك مراراً فاعترضني من العقبات والمثبطات ما لم يتأتَّ لي معهُ القول الفصل وغاية ما وصلت اليهِ ويمكنني ان اقول فيهِ انهُ عرض لعدة

اسباب مرضية تفعل على الجهاز العصبي فعلاً سيئاً فتحدث صداعاً وآلاماً عضليَّة واعراضاً مختلفة قد تشتدُّ الى حد ان تقضي على الانسان بملازمة الفراش اياماً ولا يخفى ما في هذا التحديد من النقص غير ان ما لا يُدرَك كلُّهُ لا يُترَك جُلُّهُ

اما اسبابهُ فنها مهيئة ومنها مهيّجة فمن المهيئة الوراثة والمزاج والجنس والعمر والمهنة فان الاستعداد لهُ قد ينتقل من الآباء الى الابناء وهو في اصحاب المزاج العصبي اكثر مما في غيرهم وفي النسآء اكثر مما في الرجال وفي طور الشبيبة اكثر مما في سواهُ وفي اصحاب الاشغال العقلية اكثر مما في غيرهم

ومن الاسباب المهيجة عسر الهضم وقبض الامعآء وانحراف وظيفة الكبد والتسمم بالحامض اليوديك واستنشاق الهوآء الفاسد والسهر الطويل والافراط في الشهوات والحزن والهم والغم والحر والبرد والجوع وغير ذلك مما يؤثّر على الجهاز العصبيّ ٠ ويمكن ارجاع جميع هذه الاسباب الى ما يفعل على الجهاز العصبي رأساً وما يفعل عليهِ عن طريق الجهاز الدمويّ ولا بأس من اشباع الكلام على كلٍّ من هذه الاسباب بمفردهِ وبيان علاقتهِ بهذا الدآء اذا صح ان يُسمَّى دآءً

فعسر الهضم يحدث منهُ اختمار عفني وتكوّن موادّ سامّة تمتصها المواصّ والاوعية اللمفاوية فتتصل الى الدم وتسير بهِ الى اطراف الجسم فتؤثر في الجهاز العصبي وتحدث الاعراض التي سيأتي بيانها

وقبض الامعآء يحبس بسببهِ في القناة الهضمية مواد عفنية وفضلات سامة تدخل الدم وتفعل على الجهاز العصبي فعلاً مرضياً

وانحراف وظيفة الكبد من اقوى الاسباب على احداث هذه الاعراض لانهُ من اهم وظائفها تحويل المواد السامة التي تصل اليها من القناة الهضمية عن طريق الوريد البابيّ الى مواد أُخر غير سامة بل نافعة فاذا انحرفت وظيفة الكبد مرت بها هذه المواد دون ان تتغير وسارت في الجهاز الدموي سامة كما هي فتفعل على الجهاز العصبي وتحدث الاعراض التي نحن بصددها

والتسمم بالحامض اليوديك لا ينقص اهمية عما تقدم من الاسباب فقد عدهُ بعضهم سبباً وحيداً لهذه الاعراض . وهو يحدث من كل ما من شأنهِ ان يعوق تأكسد هذا الحامض كالتأنق في الماكل والمشرب والمبالغة في الترف والتنعم واهمال الرياضة البدنية ولذلك يكثر حدوث هذه الاعراض في ذوي اليسار وفي ايام العطلة والانقطاع عن الاشغال البدنية

اما الهوآء الفاسد فيفعل اما بما فيهِ من الغازات السامة التي تدخل الدم عن طريق الرئتين ومن هناك تفضي الى الجهاز العصبي واما بعدم وجود المقدار الكافي فيهِ من الاكسيجين وفي كلا الحالين يحصل التسمم وعليهِ تكثر هذه العوارض في الاماكن القذرة والمحلات المزدحمة بالسكان

والسهر الطويل والافراط في الشهوات والحزن والهم والغم وجميع الانفعالات النفسانية تفعل على الجهاز العصبي رأساً فتهيّجهُ وتضعفهُ وقد تفعل عليهِ عن طريق الجهاز الهضمي ايضاً فتستوقف فعل الهضم وهذا يحدث صداعاً والصداع يُحدثهُ فبالفعل والانفعال يزداد الالم وتشتد الاعراض فيروح الانسان صريعاً بين تيّارات المجاري العصبية والاضطرابات المعديّة . كل ذلك والجهاز الهضمي لاهٍ عن اتمام وظيفتهِ بالاشتراك بهذه

الطوارئ الغريبة ويظل كذلك الى ان تنتهي وترجع الاعضآء الهضمية الى اعمالها فتهجع الاعراض وتعود الاشياء الى مجاريها كأن لم يكن شيءٌ مما كان والبرد والحرّ يستوقفان فعل الهضم لان المعدة تتم عملها عند درجة معلومة من الحرارة فان زادت او نقصت توقف فعل الهضم وحصل ما سبق بيانهُ في الكلام عن عسر الهضم . وقد يفعلان على الجهاز العصبي رأساً فان البرد ينبههُ والحرّ يضعفهُ فان كان الاول حصل انقباض في الاوعية الدموية بسبب تهيّج الاعصاب المحيطة بها ونتج من ذلك جفاف في الجلد واصفرار في اللون وبرد في الاطراف . وان كان الثاني حصل انتفاخ في الاوعية الدموية بسبب شلل هذه الاعصاب فتبرز الاوردة بروزاً ظاهراً وتنبض الشرايين نبضاناً بيّناً ويحتقن الجلد ويحمرّ الوجه وتظهر الحرارة في الاقسام المصابة ظهوراً يُشعَر بهِ عند اللمس

واما الجوع فليس سوى نفاد المواد المغذية من الجسم بحيث يحدث امتصاص مواد عفنية ورطوبات سامة غير صالحة للغذآء وربما كان فعلهُ على الجهاز العصبيّ مباشرةً من قبيل عدم التغذية وفقر الدم

وقد تجتمع بعض هذه الاسباب فتعمل معاً ما لا يعملهُ كلٌّ منها على حدةٍ . وهنالك اسباب أُخر يفعل بعضها فعلاً منعكساً عن بعض الاعضاء يؤثر على المراكز العصبية وبعضها يندرج في عداد الاسباب التي مرَّ بيانها وقد تحدث هذه الاعراض لغير سبب او لسبب خفي لا يُهتدى اليهِ . وبقي هنا ان اقول ان من الاطباء من يعد هذه الاعراض من انواع الحدار ومنهم من يعدها من انواع الصرع والله اعلم (ستأتي البقية)

اسئلة واجوبتها

القاهرة — قرأت في مستهلّ خطبة الثعالبي في كتاب فقه اللغة المطبوع في مطبعة الآبآء اليسوعيين في بيروت بتصحيح الاب شيخو ما نصهُ بالحرف « اما بعد حمد الله على آلائه والسلام على آلهِ واصفيائهِ ... » فلم افهم مراد المؤلف بآل الله في هذه العبارة وقد سألت عن ذلك بعض الآبآء من رجال هذه الرهبانية فاجابني بكل سلامة قلب « هم يسوع ومريم وماريوسف وهم المعروفون عندنا بالعائلة المقدسة » (كذا) وقد كان هذا التفسير يصحّ لو كان المؤلف يسوعياً ولكن الرجل امامٌ مسلم فكيف يكون مرادهُ ما ذُكر وعليهِ فارجو من حضرتكم ان تفسروا لنا مراد المؤلف التفسير الصحيح ولكم الفضل يعقوب الجمال

الجواب — ان صحَّ ان هذا الكلام هو لفظ الثعالبي فليس عند العرب ما يسمى بآل الله الاَّ اهل مكة سموا بذلك بعد حادثة ابرهة الاشرم والطير الابابيل . قال عبد المطّلب

نحن آل الله في كعبتهِ لم نزل فيها على عهد أُبْرَهَم
نحن اهلكنا ثموداً عنوةً ثم عاداً قبلها ذات الإِرَم
ولنا في كل حينٍ صولةٌ نقتل العُربَ لديها والعجَم

ولكن هذا بعيدٌ عن مراد الثعالبي وقد راجعنا هذا الموضع في نسخة فقه اللغة المطبوعة في مصر سنة ١٢٨٤ فوجدناهُ يقول فيها ما نصهُ « اما بعد حمد الله على آلائهِ والصلاة والسلام على محمدٍ وآلهِ » ومثل ذلك وجدنا في

نسخة خط قديمة عندنا لكن جآء فيها مكان قولهِ على آلائهِ على نوالهِ لتنطبق الفاصلتان على رويٍّ واحد . وعليهِ فالضمير من قولهِ « وآلهِ » يرجع على « محمد » كما هو ظاهر ولكن المصحح حذف كلمة محمد او لعلها سقطت في الطبع فعاد الضمير على اسم الجلالة المذكور قبل وسوآءٌ كان احد الفرضين او الآخر فهي غفلةٌ منهُ سامحهُ الله

القاهرة — ارجو الجواب على ما يأتي

(١) من اي لغة لفظة الكمبيالة وماذا يقابلها بالعربية

(٢) ارى بعض الكتاب يجمعون البضاعة على أبضِعة والقَطر على قُطُر بضمتين فهل هذا الجمع صحيح

(٣) عثرت في اثناء مطالعتي بعض كتب العرب على كلمة « بُعاق » فما معنى هذه اللفظة رشدي كامل

الجواب — اما الكمبيالة فكلمة طليانية ويستعمل العرب بمعناها الصكّ والذِكر والاول فارسيٌّ معرَّب يقال اخذت منهُ صكاً بدَيني وذِكرًا بحقي . واما جمع البضاعة على ابضعة والقَطر على قُطُر فالاول غلط وصوابهُ بضائع والثاني ان كان المراد بالقطر القطار الذي هو جماعة المركبات في سكة الحديد فالجمع صحيح ولكن المفرد غلط وصحتهُ قِطار بالكسر اخذاً من قطار الابل فيكون جمعهُ على قُطُر مثل كِتاب وكُتُب . واما البُعاق فمعناهُ الصوت الشديد ويقال مطرٌ وسيلٌ بُعاق اي شديد الاندفاع



كل من عليها فان

كان هذا الشهر مشكلةً للعلوم والآداب ومناحةً للادبآء والكتّاب نُعي في صدرهِ احد فتيان الوطن الالبّآء وغصنٌ من اغصان دوحة الكتابة والانشآء المرحوم سبع شميّل الذي ذكرنا منعاهُ في الجزء السابق وفاجأنا في منتصفهِ نعي شيخ الصحافة وكبيرها بل مقدَّمها واميرها المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام واشهر من تولى جريدةً في قطري مصر والشام اخترمتهُ المنية في الخامس عشر من الشهر على عقب دآءٍ عيآء حارت في تشخيصهِ بصائر الاطبآء فكان لهُ يومٌ على القلوب

شديد تناقلت انباءهُ اسلاك البرق ورُسل البريد واندفعت الاقلام تقضيهِ حق التأبين والرثاء وتشيعهُ بذكر مالهُ من الآثار الجميلة والمآثر البيضاء وفي مساء ذلك اليوم احتُفل بدفنهِ في مشهدٍ قد حفت بهِ مظاهر المهابة والاعظام ومشت فيهِ الالوف من ارباب المقامات وذوي الاقلام حتى اودعوهُ التراب مذكوراً بما لهُ من الفضائل والاحسان وعادوا عن قبرهِ وهم يستمطرون عليهِ سحائب الرحمة والرضوان

وكان الفقيد رحمهُ الله رجلاً كبير الهمة مقداماً جسوراً وُلد في قرية كفرشيما من سفح جبل لبنان سنة ١٨٥٢ وتلقى دروسهُ في المدرسة الوطنية في بيروت وفي سنة ١٨٧٥ قدم الديار المصرية فانشأ بها جريدتهُ الاهرام بمعاونة اخيهِ المرحوم سليم بك وهي اول جريدة عربية انشئت في القطر بعد الجريدة الرسمية فسلك بها مسلك الجدّ والثبات ولم يألُها سعياً واجتهاداً حتى بلغت اعظم مبلغ من الشهرة في القطر المصري وخارجهِ ولم تبرح مستقىً لصحيح الاخبار معروفةً بالصدق في خدمة المصلحة العامّة كما يعلم ذلك كل من تتبع اعدادها . وكانت الاهرام تصدر اولاً في الاسكندرية واستمرّت على ذلك الى سنة ١٨٩٨ فنقلها الى القاهرة واستخلف مكانها جريدة اخرى سماها صدى الاهرام ثم انشأ في القاهرة جريدة الاهرام الفرنسوية فكان يتولى سياسة الجرائد الثلاث معاً وهو مما يشهد برحب ذرعه وقوّة جلدهِ ومقدرتهِ على الاعمال . ثم رأى من صدى الاهرام ضعفاً وتأخراً لانها لم تثبت مع الاهرام فالغاها من عهدٍ قريب ولبثت الاهرام العربية وصنوتها الفرنسوية تصدران في القاهرة الى يوم وفاتهِ . وكان خلا

ما يلقي الى الجريدتين من الاغراض السياسية وغيرها كثيراً ما يكتب فيهما بقلمهِ المقالات البليغة الناطقة بسعة اطلاعهِ واحاطته بمعرفة سياسات الدول وتواريخ الممالك وما بينها من الصلات والمعاهدات وهو مما يدل على شدة اهتمامهِ بالخطة التي اتخذها شغلاً لحياتهِ فدرسها حق درسها واستقرى جميع دقائقها واطرافها

وقد نالت جرائدهُ الثلاث ولا سيما الاهرام العربية منها اعلى مكان من الاهمية في المقامات الرسمية وحاز لاجلها المكافآت الجمّة من اكثر الدول وكان لها من الفائدة بين قرآء العربية وعلى الخصوص في القطر المصري ما لا يسع احداً انكارهُ فانها بُدئت وليس في القطر المصري من يقرأ جريدة ولا يعلم شيئاً من امور السياسة والحقوق ولا يهتمّ لسماع حادثٍ من الحوادث الخارجية ولا الداخلية فما لبثت بضع سنين حتى انتشرت الرغبة في المطالعة بين خاصة الناس وعامتهم وازداد عدد القرآء سنةً بعد سنة حتى صاروا يُعَدّون بالآلاف وتتابعت بعد ذلك الجرائد في القطر فلم تعدم واحدةٌ منهنَّ عددًا كبيراً من القرّآء فكانت منزلة الاهرام ولا جرم منزلة استاذٍ لاهل القطر وممهدٍ لسائر الجرائد وموطّئ لانتشار العلم والاقبال عليهِ وهو فضلٌ لو لم يكن لصاحب الاهرام سواهُ لكفى . وليس هنا محل ترجمة حياتهِ بالتفصيل وانما ذكرنا ما ذكرنا بياناً لمزية الرجل والماعاً الى ما استحق بهِ المنزلة التي بلغها من الجاه العريض والدنيا الواسعة مما لم يبلغهُ كاتبٌ قبلهُ في الشرق تغمدهُ الله برحمتهِ واجمل جزآءهُ في دار النعيم

فكاهات

رواية

جزآء المعروف (١)

كان في كليّة اكسفُرد فتىً يدعى ادورد يتلقى العلوم العالية وينفق على نفسهِ من اموالٍ طائلة تركها لهُ والداهُ بعد موتهما . ولم يكن ادورد ممن يطلبون اللهو والمعاشرة فانقطع الى الدرس وجد في تحصيل العلوم فبلغ فيها شأوًا بعيداً . ولما كان ريع املاكهِ يكفيهِ للمعيشة العالية لم يهتمّ باحتراف حرفةٍ بل تفرَّغ للكتابة والتأليف فألَّف روايةً جآءت فريدةً في بابها واقبل عليها جمهور الشعب الانكليزي واشتهر المؤلف بشهرتها وجعل اصحاب المطابع يعرضون عليهِ الاموال الطائلة لمشتراها . وكان ذلك فاتحة ميدان قلمهِ فاردف روايتهُ الاولى بغيرها ثم بأخرى حتى عمَّت شهرتهُ المملكة البريطانية واكثر البلدان الاوربية فافادهُ ذلك ربحاً وافراً وشهرةً عظيمة

وكان ادورد كاكثر الكتاب لا يميل الى سكنى المدن الحافلة بالاهل فقصد بلدة صغيرة بالقرب من منبع نهر التيمس معروفة بجودة هوآئها وصحة مآئها وحسن موقعها واهتدى الى بنايةٍ فيها مؤلفة من طبقتين اكترى السفلى منهما وجعل يجول في غابات البلدة ومتنزَّهاتها وبين جداولها وازهارها

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

فيشحن دماغهُ خواطر وتصورات شتى مما تملي عليه الطبيعة ثم يعود الى غرفته وهي تطلّ على النهر فيجلس الى مائدته ويتناول من تلك التصورات فيرسم على اوراقه آيات بينات

وعلم ادورد بعد حين انهُ يقطن في الطبقة العليا من مسكنه رجلٌ يدعى المستر بلفور وهو صاحب البناية ولهُ ابنةٌ وحيدة يُتحدَّث بجمالها الرائع وحسن اخلاقها وآدابها تدعى أليس. واتفق يوماً انهُ بينما كان عائداً من نزهته التقى بأليس ولم يكن قبل ذلك يراها الا عن بعد وهي داخلة او خارجة من المنزل فرأى فيها من جمال الصورة وحسن التقطيع ما ادهشهُ فوقف مبهوتاً يتأمل في محاسنها فحيتهُ بلطف فاجاب تحيتها ثم اخذ يحادثها وفي اثناء الحديث سألها عن والدها فتنهدت من كبدٍ حرَّى وقالت اواه لا تسألني عن والدي لكن اودّ اذا كان في امكانك ان تزورهُ وتطلع بنفسك على ما هو فيه لعلك تستطيع ان تغير شيئاً من حاله فاني لا أراهُ الا خالياً بنفسه كثير الافكار قليل الكلام لا يعلم احد ما يطوي وراء اضلاعه من الهموم . فقال ادورد وما سبب ذلك يا ترى . قالت أليس لا ادري سوى انني منذ عرفت العالم ارى والدي في غرفته لا يخرج منها الاّ الى سطح المنزل ثم يعود اليها وهو لا يزور احداً ولا يكلم احداً وتدل هيئتهُ على كربٍ عظيم وخطبٍ جسيم حلّ به لكنهُ لم يطلعني على شيء من ذلك ولا يخبرني بشيء من امره مهما اكثرت من الالحاح . ثم سقطت من عينيها دمعتان احرقتا قلب ادورد قبل ان تصلا الى وجنتيها فحيتهُ باحترام وسارت في طريقها

وفي ذلك المسآء صعد ادورد لزيارة المستر بلفور وهي اول مرةٍ زارهُ فيها فرآهُ رجلاً مهيباً تدل هيئتهُ على رحب الصدر وعلوّ الهمة ولكنهُ كما وصفتهُ ابنتهُ سكوتٌ حزينٌ تظهر عليهِ علامات الانقباض وشرود الفكر كمن سقط في لجة اليأس وايقن عدم النجاة منها • فجعل ادورد زيارتهُ هذه الاولى مختصرةً ولم يزد الحديث فيها على المجاملة وتأسيس المودة المبنية على ما بينهما من الجوار الى ما شا كل ذلك من احاديث التقرب والمطايبة ثم استأذن وانصرف وكان المستر بلفور يجيبهُ بكل رقة ولطف ولكن بغاية الاختصار • ورأى ادورد من نفسهِ عاملاً يدفعهُ الى التردد على المستر بلفور ففعل ووجد هذا في محادثة ادورد ارتياحاً وانبساطاً فمال اليهِ وجعل يظهر لهُ الوداد شيئاً فشيئاً حتى اصبح ادورد كانهُ ابنهُ وصار يزورهُ كل يوم ويكلمهُ بكل دالّه وبدون كلفة • ولما تمكن الانس بينهما اخذ يسألهُ عن سبب كدرهِ وانقطاعهِ عن الناس فتنهد بلفور وانبعث من صدرهِ نفَسٌ كالنار ثم نظر الى ادورد وقال اذا شئت ان تعرف سبب كدري وتاريخ حياتي فاسمع واعتبر واتخذ لك من حالتي نصيحاً ونذيراً

انني كنت تاجراً في مدينة لندن وكان لي ولع شديد بالتجارة فابتدأت ولي من رأس المال مئتا ليرة ورثتها عن والدي فلم تنته السنة الاولى حتى ضاعفت رأس المال فسررت جدًّا من الربح ودفعني ذلك الى زيادة الاجتهاد فضاعفتهُ ايضاً في السنة الثانية ثم ضاعفت المجموع في السنة الثالثة ولم ازل ازيد في رأس مالي وتجارتي واجتهادي حتى اصبحت يوماً فوجدت ان ثروتي صارت تقدَّر بمئتي الف ليرة • وكانت نفسي قد تعبت لفرط ما

اجهدتها الاّ انهُ لم يعد في امكاني التخلي عن الاعمال مع اتساع تجارتي وامتداد معاملاتي الى كل ناحيـة . وكان يتردد على محلي فتىً فقير الحال فاجود عليهِ المرة بعد المرة بما يفرج كربتهُ ورأيت انهُ يطمع مني في اكثر من الاحسان وآنست فيهِ ذكآءً وتوقد خاطر واستعداداً لتعاطي الاشغال فعرضت عليهِ الاستخدام في محلي فقبل شاكراً فعينتهُ للحال ولم تمضِ على هذا الفتى ايامٌ كثيرة حتى ظهرت مهارتهُ واستعدادهُ للتجارة فجعلت ارشدهُ وادرّبهُ وبسطت يدهُ في محلي وفي وقتٍ قصير جعلتهُ القيّم العام على كافة اعمالي فاصبح في يدهِ العقد والحل يتصرف في تجارتي وسائر اشغالي كما يشآء بلا رقيبٍ ولا مناقش

ولكن الغدر طبيعةٌ في اكثر الناس والانسان مركبٌ على الطمع والبغي فان هذا الحمل الذي ربيتهُ بيدي لم يكن سوى ذئبٍ خاطف ولصّ خائن لانهُ لما رأى ان كل شيءٍ قد اصبح في يده وموكولاً الى عهدتهِ وتحقق ثروتي الطائلة لعب برأسهِ شيطان الطمع فنقل جميع اموالي واملاكي الى اسمهِ وحرمني ثروتي بأسرها ثم طردني من محلي كبعض الخدم. فخرجت لا املك شروى نقير وليس في يدي سلاحٌ على هذا الخائن لخروجي من عهدة جميع اشغالي اليهِ فاخذت الوم نفسي على ما فعلت وندمت ولكن بعد فوات الامر حين لم يعد ينفع الندم ولا يمكن تدارك الحال. ولما رأيت نفسي قد صرت الى ما صرت اليهِ وذهب كل ما كنت فيهِ من الغنى والوجاهة تعذَّر عليَّ البقآء في لندن فهجرتها وجئت الى هذه البلدة وهذه البناية ملكٌ لزوجتي فسكنَّا هنا ولها في هذه الناحية اراضٍ ذات ريع زهيد نعيش منهُ .

وبنآء على ما اثرت فيَّ هذه الفعلة الشنعاء كرهت الجنس البشري عموماً وآليت على نفسي ان لا اتداخل مع مخلوقٍ آخر سوى اهل بيتي . ومما زاد احزاني ان زوجتي توفيت بعد وصولي الى هنا ببضعة اشهر تاركةً لي طفلةً صغيرة هي أليس ابنتي التي رأيتها الآن . فدفنت فقيدتي تحت ظل تلك الاشجار في الحديقة وكان ذلك منذ عشرين سنة فلم اخرج من ذلك الحين الى خارج بيتي ولا اقدر ان اجيل في فكري شيئاً سوى خرابي وتنغيص حياتي والويلات التي جرّها على رأسي ذلك العاتي العقوق فالويل لي في الدنيا ولهُ في يوم الموقف الرهيب

وزاد تأثر المستر بلفور فاحمرّت حدقتاهُ وقطب حاجبيهِ واجتمع الزبد على اشداقهِ واصبح كمن مسّهُ جنون فجعل ادورد يسليهِ ويهوّن عليهِ الامر وقد اخذتهُ عليهِ الشفقة والرحمة وجعل من واجباتهِ اليومية ان يزور المستر بلفور فيجتهد في تسليتهِ عما مضى خوفاً عليهِ من ان يودي بهِ الهمّ والحزن وشفقةً على ابنتهِ التي لا ترى سوى والدها ولا تسمع سوى ترديد احزانهِ واشجانهِ

وكان اذا دخل ادورد الى زيارة المستر بلفور يطلب اليهِ ان تخرج أليس فتتنزه في الخلاء رفقاً بصحتها فكانت تخرج في اكثر الايام عند المساء . وحدث يوماً انهُ بينما كان ادورد عائداً من نزهتهِ صادف اليس في احد الشوارع عائدةً الى البيت وبرفقتها شابٌّ لا يقلّ جمالهُ عن جمالها وهما سائران معاً كملكين او كبدر قُسم نصفين فاستغرب ادورد مرافقة اليس لهذا الفتى ولما اقترب منهما رفع قبّعتهُ مسلماً فاستوقفتهُ اليس ثم عرفتهُ برفيقها واسمهُ

المستر وليم برَون وقالت لادورد ان الاتفاق ساقني الى التعرّف بالمستر برون ورأيت فيهِ مشابهة لاحوالي فتصادقنا . ثم التفتت الى رفيقها وقالت لهُ هذا هو المستر ادورد الذي ذكرتهُ لك والآن بما ان والدي قد اصبح وحدهُ فاني استأذنكما في الاسراع اليهِ وادعكما تتمّان نزهتكما وتحكمان بينكما عرَى الصداقة . قالت ذلك ثم ودّعتهما وتوجهت الى البيت . وسار ادورد ووليم يتحادثان فعلم ادورد ان وليم بعد ان اتمّ دروسهُ في المدارس العالية عاد الى والدهِ في تلك البلدة فوجد ان والدتهُ قد توفيت ورأى والدهُ قلق البال مضطرب الاحوال مشتت الفكر لا يخرج من بيتهِ ولا يهتمّ بشيء سوى الصلاةُ والابتهال وهو يقضي اكثر اوقاتهِ في الكنيسة جاثياً امام مذبحها مقدماً تضرعاتهِ بغاية الخشوع والاسف . وان وليم لما رأى والدهُ على هذه الحال لم يمكنهُ تركهُ فاضطرّ ان يبقى معهُ ولكنهُ سئم حياة الوحدة وضجرت نفسهُ من الخلوة لو لم يتعرف اخيراً بأليس فصار يرى بها بعض السلوّ والاستئناس . ثم قال وليم لادورد وقد بلغني من أليس حسن معاملتك لوالدها فهل لك ان تتنازل لزيارتنا لعلك تتمكن من حل عقدة لسان والدي كما فعلت بابيها . فتبسم ادورد وتعجب من وجود شخصين غريبي الاطوار في بلدةٍ واحدة معهُ وتحت عنايتهِ فتوجه مع وليم الى بيتهِ وتعرف بوالدهِ المستر برَون فرآهُ في اطوارهِ كالمستر بلفور ولا يختلف عنهُ الاّ في ان هيئتهُ تدل على المسكنة والانكسار وانهُ يكثر من الصلاة والتضرع خلاف ذاك

وجعل ادورد يقضي اكثر اوقات فراغهِ في تطبيب بلفور وبرَون وقد رأى في ذلك لذةً فتمكن اخيراً من اخراج بلفور من بيتهِ فصار يزور ادورد

في بعض الليالي ويسهر عندهُ الى الساعة الحادية عشرة فتأتي أليس وتأخذ والدها من عندهِ بعد ان تلقي عليهِ نظرةً تعرب عن شكرها ومعرفتها جميلهُ .
ومال ادورد الى جمع بلفور وبرَون يوماً معاً ليرى ما يكون من امرهما فسعى جهدهُ في اقناع برَون ان يزورهُ حتى وعدهُ ان يأتيهُ في تلك الليلة فيقضياها بلعب الشطرنج . ولما كانت الساعة الثامنة جآءهُ على حسب وعدهِ فاستقبلهُ ادورد بالترحاب واجلسهُ ولم يكد يستقرّ بهِ الجلوس حتى قُرع الباب فعرف ادورد ان القارع المستر بلفور فقام وفتح الباب فدخل المستر بلفور الى وسط الردهة ولكنهُ رأى رجلاً غريباً في الغرفة فوقف مفكراً . وكان ادورد قد اغلق الباب وعاد فقال لهُ ان عندي الليلة زائراً وارجو ان يكون لنا نحن الثلاثة من الاحاديث ما نتمكن بهِ من صرف الوقت فأذنا لي ان اعرّف بعضكما ببعض . ثم التفت الى برَون وقال لهُ اعرّفك بالمستر جون بلفور والتفت الى بلفور وقال لهُ اعرّفك بالمستر توما برَون . فما أتمّ ادورد هذه الكلمات حتى وثب المستر برون من مكانهِ كمن مسهُ سلكٌ كهربآئي اما بلفور فجحظت عيناهُ وتوردت وجنتاهُ وصاح بصوت يخنقهُ الغيظ وقال ماذا اسمع .. اسم توما برون .. الحية الرقطآء اللص الخاطف النذل الجبان . نعم ان توما برون هو هو الرجل الذي احسنت اليه فسلبني مالي وجرَّ عليَّ الويل والخراب فلتلعنهُ السمآء ولتلعنهُ الارض ولتصعقهُ دعواتي المتصاعدة ليلاً ونهاراً الى عرش المنتقم الجبار . قال ذلك وهمَّ بالخروج فوثب اليهِ برون وامسكهُ من ثيابهِ ثم جثا امامهُ فقبل قدميهِ وقال مهلاً يا مولاي بلفور اناشدك الله ان لا تزيد حياتي مرارةً وقلبي انكساراً فاسمح لي ان

اسرد لديك عذري واستغفرك عن ذنبي . ودخل ادورد بينهما وقد استغرب هذا الاتفاق العجيب فاجلس بلنور رغماً عنهُ واخذ برون يقص ما كان من حديثه فقال

أجل ايها السيد الكريم انك انت سبب نعمتي لانك اخذتني فقيرا وجعلتني قيماً على جميع اعمالك واموالك وقد دار في راسي الطمع او حب الغنى فزينت لي نفسي الخبيثة ان اساوي نفسي بك ثم لم اكتفِ بذلك حتى اقدمت على ما فعلتهُ فتركتك فقيراً وتملكت مقتناك وقد اشتغلت سنتين بجد ونشاط فضاعفت المال . ولكن بعد ذلك هب الشرف من رقادهِ واستيقظ ضميري بعد موتهِ فندمتُ على ما فعلت ورأيت ان اتدارك ما جرى بارجاع مالك مع فوائضهِ واخذ ما حصلتهُ انا بجدّي فبحثت عنك فلم اقف لك على اثر فاعلنت في الجرائد مدة ثلاث سنوات ولم اظفر بك ولم يطمئن ضميري قط فاعتزلت الاشغال وجئت هذه البلدة مع زوجتي وولدي فانقطعت عن العالم واخذت اكفّر عن ذنبي بالصلاة والتقشف والزهد مدة هذه السبعة عشر عاماً وقد ماتت في اثنآئها زوجتي فزادت احزاني وضاعفت مصائبي

ثم جعل الاثنان يتعاتبان ويستفسران وادورد يعجب مما جرى على غير انتظار حتى آذنت الساعة الحادية عشرة وجآءت أليس لتأخذ اباها حسب العادة فسمعت بعض الكلام فوقفت على الباب متأملةً واذا بوليم قادمٌ ايضاً فانهُ كان قد استبطأ والدهُ وجآء ليسأل عنهُ فوقف مع أليس واشتغلا بحديثٍ خاص

وحانت من ادورد التفاتة فرآهما فهبّ اليهما وادخلهما فاطلعهما على ما جرى وكان برون لا يزال يستغفر بلفور ويلحّ عليهِ في قبول ارجاع امواله مع فوائضها وقد بلغت نصف مليون من الليرات . ولما طال الجدال وقف ادورد فقال لا اظنكم تحجمون عن اقامتي حكماً في الامر فان المستر بلفور لم يعد لهُ حاجةٌ بالمال لانهُ اصبح شيخاً لا يقدر على تعاطي الاشغال ولهُ هذا البيت الذي يكفيهِ لمعيشتهِ ولكن لما كانت هذه الاموال حقهُ فيجب ان تُسلَّم الى ابنته أليس . واما المسيو برون فجزآؤهُ على فعلتهِ هذه ان يؤخذ منهُ كل مالهِ ويعطى لابنهِ وليم وبما اني رأيت لا بل تحققت وجود الحب الصادق بين وليم وأليس فاقضي بان تكون خاتمة هذا الامر اقترانهما فيكون في ذلك تجديد صلة المودّة بين الطرفين وسعادة البيتين جميعاً

فتبسم بلفور وقد اعجبهُ هذا الحكم وانحدرت دمعتان من عيني برون علامة السرور وكان بعد ذلك ان اقترن وليم بأليس واقاما يتمتعان بتلك الثروة الواسعة وافرزا لوالديهما مكاناً يقضيان فيهِ بقية الحياة ويتحادثان ليلاً ونهاراً فيعوضان عن سكوتهما مدة تلك العشرين سنة

اما ادورد فكان الضيف الوحيد المعزَّز المكرَّم عند تلك الأُسرة لما انهُ كان هو السبب في اجتماع شملهم وما صاروا اليهِ من الهنآء والرخآء فلبث معهم كانهُ واحدٌ منهم الى ان فرقت بينهم الاقدار